حكايات نبوية

٦

اللهمّ اجعلني مثلها !!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

معَ صحيحِ البُخاريِّ..

بينَما كانَتْ (ليلَى) تقفُ أمامَ مكتبةِ والدِهَا.. تتأمَّلُ هذهِ المجلداتِ والقصصِ وَالتَّفاسيرِ و...

وبينمَا هي تتأمَّلُ رأتْ عِدَّةَ مُجلداتٍ تَحملُ عنواناً واحداً هو (صحيحُ البُخاريِّ) فقالتْ في نَفسهَا: كمْ بَقِيَ الإمامُ البُخَارِيُّ يَكْتبُ حتَّى أكملَ هذه المجلَّداتِ؟ ثمَّ نظرتْ إلى يمينِ تلكَ المُجلداتِ فرأتْ أَمْراً عَجَباً!

لقدْ رَأتْ ثلاثةَ عشرَ مُجلداً تحتَ عنوانِ (فَتحِ الباريّ شَرْح صحيحِ البُخَاريّ) للإمامِ ابنِ حجرٍ العَسْقَلانيّ..

فازدادَ تعجُّبها وقالتْ: حَقاً لقد تعبَ الأَجْدادُ

في ضبطِ وتحصيلِ العُلومِ..

ثمَّ أخذتْ وَاحداً من مجلداتِ (فَتحِ البَاريِّ) وراحتْ تَقرأُ فيه بعضَ الأحاديثِ النبويَّةِ... ومعهَا شُروحاتِها و..

واسْتَغْرَقَتْ في ذلكَ.. حتَّى إنَّها نَسيتْ مَوْعِداً مَعْ صَدِيْقَتِها (لميس) وفجأةً سمعتْ صَوتَ جَرسِ الهاتفِ..

أَسْرَعَتْ إليهِ.. ورَفعَتِ السمَّاعَةَ.. وإذا بِهَا تسمعُ صَوتَ (لميس) وهيَ تقولُ لهَا: لقدْ شغلتِ بالِي عليكِ... فأنَا أنتظركِ منذُ أكثر من سَاعةٍ.. فماذا جَرى معكِ يا عزيزَتِي؟

وقدَّمَتْ (ليلَى) اعتذارَها.. وقالَتْ: كلّ ما في الأَمْـر أنِّـي أخـذتُ أقـرأُ فـي (فتـحِ البَـاريِّ) واسْتَغرقتُ في ذلكَ حتَّى نسيتُ كُلَّ شَيء..!

ولقد أُعْجِبتُ بقصَّةٍ نبويَّةٍ فيهَا الأدلَّةُ البيِّنةُ

على قدرةِ اللهِ وعظمتهِ، وأنّه وحدَه هو الَّذي يمدُّ العِبادَ بفيوضاتِ كَرَمِهِ وفضلهِ.. ، وهوَ الَّذي ينجيهِم وقتَ الأزماتِ والشَّدائدِ..

وها أنا أنقلُهَا إلى دَفتَري الخَاصّ، لأُلقِيها على الطَّالباتِ في الوَقْتِ المُحَدَّدِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وبعدَ أيَّامٍ حَملتْ (ليلَى) دفترَهَا الخَاص، وانطلقَتْ إلى المَعْهَدِ، ولمّا وَصلتْ رأتِ الطَّالباتِ يقفنَ خارجَ قاعَةِ المُحاضَراتِ!

فَسَألتهنَّ: وماذا جَرى حتَّى تَقِفْنَ على البابِ؟ ولماذَا لم تدخُلْنَ إلى داخِل القَاعةِ؟

فقالتْ واحدةٌ من الوَاقِفاتِ: وأيّ قاعَةٍ ستتَّسِعُ لِكُلِّ الحُضُورِ، لقدْ وَقفنَا عندَما رأينا الأمّهات والكَبِيراتِ يقفنَ على الأَبْوابِ، وأجلسناهنَّ في أمكنتنَا.. ، وذلكَ امتِثالاً لقولِ المُصطَفى ﷺ: «مَنْ

لم يرحَمْ صغيرنَا ويُوقِّر كبيرنَا ، فليسَ مِنَّا».

واقْتَرَبَتْ (لَيْلى) من البَابِ.. ثمَّ نظَرتْ إلى الدَّاخِلِ.. فقالَتْ في نَفسِهَا: أوكلّ تلكَ النّسوةِ جئنَ لاستماعِ الحكايةِ الّتي انتقيتُها أنا؟!

وبعدَ قليلٍ.. قدَّمت المُديرةُ (لُبابَـةُ) الطَّالبةَ (لَيلَى).. مُثْنيَةً عَليها وعلى نشاطَاتِها الفكريَّةِ والثَّقافيَّةِ.

ووقفتْ (ليلى) وبكلِّ شجاعةٍ أمامَ الحُضُورِ.. وافتَتَحتِ المُحَاضَرةَ بالتَّسْمِيةِ والحمد للهِ.. ثمَّ راحتْ تسردُ الحِكَايَةَ:

اللهُ القَادِرُ على كلِّ شيءٍ..

ذاتَ ليلةٍ حكَى النَّبيُّ ﷺ حكايةَ الثَّلاثَةِ الَّذينَ تَكَلَّموا في المَهْدِ ، والحِكايةُ ليستْ من أَبوابِ الأَساطِيرِ وَالتَّسلياتِ ، إنَّما هي قصَّةٌ مبوبةٌ

ومضبوطةٌ، وهيَ مَذكورةٌ في (صحيح البُخَارِيِّ) ومشروحةٌ في (فتحِ الباريِّ)...

من معجزاتِ اللهِ الخارقةِ أنْ يتكلم صبيٌّ بعدَ ولادتهِ بقليلٍ!.

لكن الله قادرٌ على كلِّ شيءٍ ، وقدْ حدَثَ ذلكَ فِعلاً:

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ ﴾.

فبعدَ أَنْ كَبُرَتْ (مَرْيمَ) عليها السَّلامُ ، عكفتْ على خدمةِ بيتِ المَقْدِسِ وكفِلَها زَوْجُ خالتها زكريّا عليهما السَّلام..

واجتهدتْ فِي العِبادَةِ ، حتَّى خاطَبتهَا المَلائكةُ بأنّ اللهَ سيهبُها الوَلدَ!.

لكنْ كيفَ يَكُونُ ذلكَ وهِيَ ما زالتْ بِكراً لم تتزوَّجْ بَعدُ؟

وأخبرتْ أَنَّ ذلكَ آيةً من آياتِ اللهِ سُبْحانَهُ ، وهوَ عليهِ هيِّنٌ ويسِيْرٌ..

وهكَذا كانَ.. فلمَّا حملتْ بِهِ ووضعتهُ ضَاقتْ بهِ ذَرعاً ، لكنْ ماذا يُمكِن أنْ تفعلَ أمامَ ألسِنَة قومهَا ؟! لذلك قالتْ:

﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

[مريم: ٢٣].

وعلَم قومُها بحكايةِ حَملهَا.. فهَرولُوا إليْهَا.. وتساءَلُوا: كيفَ يكونُ الحَملُ دونَ زَواجٍ؟

فلم تتكلَّمْ بِكلمةٍ واحدةٍ ، وإنَّما أشارَتْ إلى غُلامِها ، أي: هوَ خاطبُوه واسْأَلُوهُ.. واستفسرُوا منهُ!

فاستنكَرُوا ذلِكَ:

﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩].

وكَانَتْ عَظمةُ اللهِ تَعالى وقوَّتُه: بأنْ نطقَ عيسَى عليهِ السَّلام بجوابٍ تعجيزيٍّ أفحمَ النُّفوسَ:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

[مريم: ٣٠ ـ ٣٥].

وبذلكَ أظهرَ عيسَى بَراءةَ والدتِهِ مريمَ (عليهما السَّلام)، وكانَ ذلكَ تَتويجاً لحقيقةِ الطَّاهرةِ البَتُولِ..

هل أتاكَ خبرُ (جُرَيْج)؟!

وتابعتْ (ليلَى) الحكايةَ النبويَّة قائلةً:

والثَّاني الذي تكلَّم في المهدِ هوَ صاحبُ (جُرَيْج) ، لكن هلْ سمعتُمْ بِقصَّةِ جُريجٍ؟

إنَّهُ عابدٌ من عُبَّادِ الزَّمن الماضِي ، كانَ قَدِ انقطعَ عن النَّاسِ وزهدَ في الدُّنيا ، وجلسَ في صَوْمعتِه يُصلّي ويذكرُ اللهَ سبحانَهُ وتَعالى.. وفي ليلةٍ مِنَ اللّيالي جاءتهُ أمُّه ونادتهُ من أَسْفَلِ الجَبَلِ:

يا جُرَيْج.. تعالَ إليّ.. فأنا أُرِيْدُكَ..

لكنَّ جريجاً كانَ مُسْتغرقاً في الصَّلاةِ.. وحَارَ في نَفسِهِ: أيقطعُ الصَّلاةَ لِيُجيبَ أمَّهُ ، أم يستمِرّ في عبادتِهِ؟

وتَابَعَ الصَّلاةَ. بينَما كانتْ أُمُّهُ قدِ انصَرَفَتْ إلى بيتِها..

وفي اليومِ الثَّاني تكرَّرَ ذلكِ أيضاً.. واستمرَّ في صلاتِهِ ولم يَسْتَجبْ لنداءِ أُمِّهِ..

فمَا كانَ مِنهَا إلاَّ أَنْ دَعَتْ الله قائِلةً: اللَّهُمَّ لا تُمتهُ حتَّى ينظرَ إلى وُجوهِ المُومِساتِ[1]!!

ودارَ الزَّمَنُ دورَتَهُ ، وذاتَ يومٍ تحدَّثَ النَّاسُ عن عِبَادَةِ (جُرَيْجٍ) وورعهِ وانقطاعِهِ عن الدُّنيا..

فقالتِ امرأةٌ فاجرةٌ جميلةُ المَنْظرِ: إنْ شئتمْ لأَفتننّهُ.. فأنَا عِندي حيلٌ وأساليبُ أخدعُ بها الرِّجالَ..

وبالفِعلِ ، انطَلقتْ إلى صومعَتِهِ ، وتزيّنَتْ لَهُ... وأبرزَتْ مفاتِنَها ثمَّ عرضَتْ نفسها عليهِ..

---

(١) المومس: هي الزَّانية.

فـأبَـى الـرَّجـلُ.. وقـالَ: إنِّـي أخـافُ اللهَ ربَّ العالمِيْنَ..

فـازدَادَ غَيْظُهـا.. وأقسمـتْ أنَّهـا ستتَّهمـهُ بفَاحشةٍ ما.

ورأتْ راعياً يَرعىٰ الغَنَمَ.. فارتكبتْ معهُ الفاحشةَ.. ثم عادَتْ إلى قومِها.

وبعدَ عِدَّةِ شُهورٍ.. وضعتْ صبيّهَا.. وأَخْبرتِ النّاسَ: إنَّ هذا الصَّبيَّ هو ابنُ العالمِ (جُرَيْجٍ).. وهوَ الذي ضَاجَعَنِي.. ومارَسَ مَعي الفاحِشَةَ..!!

ولمَّا سمعَ القومُ ما قالَتْهُ.. أَسرعُوا إلى صومعتهِ، ورَاحُوا يقذفونَها بالحِجارَةِ حتَّى تهدّمَتْ.

بينَما كانَ (جُريجٌ) حائراً ماذا حدثَ للقَوْمِ.. ولكنْ عندَما راحُوا يتكلّمون معهُ بكلِّ قساوةٍ وغلظَةٍ ويوجهونَ إليه التُّهَمَ.

فقالَ لَهُمْ: أَروني أينَ هُوَ الصَّبيُّ!

وجيء بالصَّبيِّ.. فوضَعَهُ (جريجٌ) على الأرضِ.. وراحَ يُصلّي للهِ ويدعُوهُ ويبكي، وإذا بالغُلامِ يَنطقُ بأفصحِ لغةٍ ويقول:

أَبي هُوَ الرَّاعي ولا علاقَةَ لِجُرَيجٍ بذلكَ كلّه..

فأقبلُوا على (جُريجٍ) يقبّلُونَهُ ويتمسّحونَ بهِ..

فمَن هوَ الثَّالثُ؟!

وبينَما كانَتْ (لَيْلَى) تُقلّبُ الأوراقَ التي أمامَها إذا بامْرأةٍ تقولُ:

هيَّا يا عزيزَتي.. حدِّثينَا عنِ الغُلامِ الثَّالثِ..

وتابَعتْ (ليلَى) الحكايةَ النَّبويَّةَ، قائلةً:

... وبينا صَبيٌّ يرضعُ مِنْ أمِّهِ فمرَّ رجلٌ راكبٌ على دابَّةٍ فارِهَةٍ وشارةٍ حَسَنَةٍ.

فقالَتْ أمُّه: اللَّهُمَّ اجعلْ ابنِي مثلَ هذا.

فتركَ الثَّدْيَ وأقبلَ إليهِ ، فنظرَ إليهِ فقال: اللَّهُمَّ لا تجعلنِي مِثْلَهُ!

ثمَّ أقبلَ على ثديهِ فجعلَ يرضَعُ.

.. ومرُّوا بجاريةٍ وهمْ يضربُونَها: زَنيتِ ، سرَقتِ ، وهي تقولُ: حسبيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ..

فقالتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لا تجعلْ ابنِي مثلَها.

فكلَّمتِ الأمُّ وليدَها.. وتناقَشا في ذلكَ..

فَقالَتْ: مرَّ رجلٌ حسنُ الهَيئةِ ، فقلتُ: اللَّهُمَّ اجعَلْ ابني مثلهُ ، فقلتَ: اللَّهُمَّ لا تجعلنِي مِثلَهُ!.

ومرُّوا بهذهِ الأَمَةِ وهم يَضْرِبُونَها ، فقلتُ: اللَّهُمَّ لا تجعل ابنِي مثلَها.. فقلتَ: اللَّهُمَّ اجعلنِي مثلهَا!!

قالَ الغُلامُ: إنَّ ذلكَ الرَّجُلَ جبّارٌ ، فقلتُ: اللَّهُمَّ

لا تجعلني مِثْلَهُ ، بينما تِلكَ الفتَاةُ قدِ اتَّهَمُوها بالزِّنىٰ والسَّرقة وهي بريْئَةٌ.. فقلتُ: اللَّهُمَّ اجعلنِي مثلَها..».

وصفَّقَ الحضُورُ تَصْفِيقاً حَاداً.. وعلَّقتِ الآنسةُ (لَبيبةُ).. حقاً: إنَّهُ اللهُ على كلِّ شيءٍ قَدِيْرٌ.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ